المرحلة الثالثة / الدراسة المسائية

اسم المادة / فلسفة التاريخ

عنوان المحاضرة : التاريخ وتفسيرهُ من منظور اسطوري

اسم التدريسي/المدرس ثائر سلمان فيصل

2025-2026

المحاضرة : التاريخ وتفسيرهُ من منظور اسطوري

الأسطورة لغةً: جمعها اساطير، معنى كلمة اسطورة: هو سطر بمعنى كتب، كما جاء في قوله تعالى: (ن والقلم وما يسطرون)، اي ما يكتبهُ الملائكة مما يوحى إليهم.

وتعني الأسطورة ايضاً الحديث والحكاية (الشفاهية) المتداولة، كما جاء في قوله تعالى:(وقالوا اساطير الاولين)، اي أحاديث المتقدمين وما سطروا في كتبهم.

وتأتي الاساطير بمعنى الاباطيل والاكاذيب والأحاديث التي لا نظام لها اي بأنها الحكاية ليس لها أصل، كما جاء في قوله تعالى:(ان هذا الا اساطير الاولين)، اي ما هذا الا اكاذيب الاولين قد سطروا ما لا حقيقة له ويجري مجرى حديث السمر الذي يكتب للأطراف بهِ.

اما أصل الكلمة (اسطورة) فهناك عده اراء: فيرجع أصلها الى اليونانية واللاتينية استخدموها بالمعنى نفسه اي تاريخ وقصص اخذوها من الروم.

وقسم اخر يرى ان أصل كلمة اسطورة مشتق من الجذر العربي (سطر) بمعنى كتب، وهو موجود في مختلف اللغات السامية.

اما اللغات الأوروبية حديثة فان أصل كلمه (اسطورة) مشتقة من الكلمة اليونانية (الكلمة المنطوقة) قبل ان تتعدد دلالاتها ويتسع معناها لتصبح بمعنى القصة او الحكاية التقليدية.

وبعضهم يرى ان هذه الكلمة أصلها افريقي مشتق منه مصطلح ميثولوجيا الذي يعني علم الاساطير بعد ان تبلور هذا العلم في مطلع القرن العشرين.

إذ شغلت الاساطير موقعاً بارزاً في الحياة الروحية والفكرية لأمم العالم القديم وللأساطير علاقات وثيقة بالتاريخ لما تضمنتهُ من ماده تاريخية اولية وتفسير لحوادث التاريخ في بعض حقبهِ وتعليل لمغزى تلك الحوادث.

فالنمط القصصي الذي تميزت به الأسطورة كان الخيط الاول في النسيج الذي يربط الأسطورة بالتاريخ، وبذلك يمنح التاريخ اهمية كعنصر من العناصر المكونة للأسطورة واداة اعتمدتها الأسطورة للإفصاح عن طبيعتها ومكوناتها وغاياتها.

فإن ما تضمنتهُ الاساطير من ماده تاريخية وما دونتهُ من حوادث (أسطورية) وقعت في الماضي يبين طبيعة العلاقة بين الأسطورة والتاريخ، وبما فيه من رؤى تتعلق بموضوع تفسير مسيرة التاريخ في إطار المنظور الاسطوري، وبذلك تكون هناك علاقة وثيقة تعكس ثنائية متلازمة ومتناقضة يستدعي بعضها بعضاً التي تعرف بالعلاقة الجدلية.

فالأسطورة والتاريخ بينهما نوع من التعارض ليس مفرقاً اذ ان هناك علاقة وسطية مشتركة بينهما، لذلك نجد نفس العناصر الأسطورية يتم دمجها عده مرات لكنها دائماً في نسق مغلق، وفي حالة تعارض مع التاريخ الذي يكون في نسق مفتوح.

فالأسطورة تتحدث عن خلق الكون وبداياتهُ واصل تكوينهُ وعن اصل الإنسان وشروط وجودهُ وحركتهُ على الارض، كذلك اصل النبات والحيوان، والطقوس والعبادة وكيفية ادائها بما يؤلف تاريخاً مقدساً يمتد الى ازمنة متوغلة في القدم.

فان هذه المضامين المتنوعة والاغراض المتعددة اشتملت على مادة تاريخية (اسطورية) غزيرة، أو شبه مادة تاريخ بعد تحليلها الى عناصرها ومعرفة جانباً من حقيقة ما جرى في الماضي دون ان تميز ما هو واقعي وبين ما هو خيالي من تلك المادة أو شبه المادة التاريخية، وبالتالي فان تلك المادة ساهمت في كشف ملامح البناء الفكري للإنسان ووعيهُ بذاتهُ والعالم المحيط بهِ.

فالتاريخ اعطى حضوراً بارزاً للأسطورة، وان أحدى نظريات نشأة الأسطورة (نظرية المدرسة التاريخية) تؤكد بأن التاريخ هو الباعث للأسطورة وليس العكس، اول الاصل الذي اقيمت عليه الأسطورة، اذ ان الاساطير تمثل في أصلها تاريخ البشرية الاولى كونت ملامحهُ الدقيقة واضفى الخيال الإنساني عليه جواً فضفاضاً.

اما تاريخ الالهة هو إلا تاريخ لعصر الابطال، إذا كان الإنسان يعجب بالقوة والجبروت، واخذ يتطور هذا الاعجاب عند الاجيال الى التقديس فتصل الى حد عبادة الاباء ثم تصل الى تناسي هذه الأبوة ودخولها مرحلة الألوهية ومن ثم تكون الأسطورة قد نشأت على اساس مرتبط بالتاريخ.

وهناك راي اخر يذكر ان بواعث نشأة الأسطورة كان مشابهاً للباعث الذي حدا بالإنسان على ان يسعى لمعرفة ماضيهِ، وذلك لان الأسطورة ترتبط في جزء من دواعي انبعاثها بتساؤلات عن خلق الإنسان واصل الكون ونظامهُ.

كذلك التاريخ من حيث نشأتهُ سعى فيه الإنسان الى معرفة ذاتهُ من خلال وسائل عدة، منها التعرف على ماضي البشرية وإدراك مغزى حوادثهُ وانماط مسيرتهُ فان كلاهما (التاريخ والأسطورة) ارتبط بفطرة الإنسان التي امتزجت مع الدين، اذ ان الإنسان مؤرخ بفطرتهُ، كما ان الدين ملازم لفطرتهُ، فقد مارس الإنسان التاريخ شفهياً قبل ان يعرف الكتابة التي تعد وسيلة لتدوين التاريخ وحفظهُ.

فالأسطورة هي وسيلة الانسان لفهم العالم الطبيعي والاجتماعي من خلال توظيف الماضي (الاسطوري) عن طريق تصوير أصل الكون وسلالات الإلهة والبشر، فتستعين بالماضي وتحاول ان تصل الى منظور زمني ترتب على اساسهُ الاشياء والحوادث والإنسان، حينما بدأ يبحث عن منشأ الافكار فقد كُتشف الاصل الاسطوري وليس التاريخي.

ورأي اخر يذكر بان الفكر التاريخي انما ولد من ضلع الفكر الاسطوري وان الأسطورة رسمت خطوات التاريخ الاولى لكون مطلع التاريخ تتجلى بأواخر الأسطورة التي حاولت ان تسد النقص والنسيان في الماضي البشري.

تتميز الأسطورة على التاريخ اذ هي تفسير الماضي والحاضر والمستقبل، اما التاريخ يقتصر على حوادث حصلت في زمن غابر بعيد، وهذا يمنح الأسطورة شمولاً واصالة.

فالأسطورة إذن تهدف الى الكشف على الثوابت ولا تسعى بشكل اساسي التعرف على تتابع الاحداث مما جعلها تستمر في حياتها حتى مع انبثاق السرد التاريخي وتتعايش مع التاريخ في كثير من الاحيان دون ان تتجاوز خصوصيتهُ لان لكل منهما هدفاً خاصاً به.

وذكر ميرسيا أشهر علماء الميثولوجيا بأن المفكرين الغربيين كانوا حتى نهاية القرن التاسع عشر يعدون الأسطورة ضرباً من الاوهام او الحكاية الملفقة وان الأسطورة هي رواية لتاريخ مقدس، يذكر احداث وقعت في الزمان الاول قامت بها الإلهة والكائنات الخارقة العظيمة وهذه الحوادث حقيقية في نظر الإنسان القديم تاريخاً حقيقياً جرت حوادثهُ في بداية الزمان الاسطوري وهي تصلح انموذجاً للسلوك البشري.

رؤى أسطورية للتاريخ : حفلت الاساطير برؤى وتفسيرات للحياة ولكون الإنسان الذي يكون في مقدمة الامور التي وضعتها الأسطورة، فان الخليقة والطوفان في ادبيات العالم القديم اساس الاساطير كلها، فكشف هذه الاساطير نشأة الخلق لدى الامم القديمة وعلى ما قامت به البشرية الاولى للتعرف عن بداية الحياة على الارض وتفسير مغزاها، اذ تكشف هذه الاساطير فكرة التطلع الانساني في الكشف عن بواعث الاحداث والرغبة في التنبؤ بسيرها والتحكم في مصيرها، وايضاً لا تخلو عن محاولة العثور على معنى لحياة الإنسان.

فكانت الإلهة التي تتحكم في طبيعة الحوادث التي تمر بها البشرية عبر تاريخها في مختلف جوانب حياتها وانظمتها المختلفة اجتماعية واقتصادية ودينية وسواها والتي تسير حركة المجتمع على وفق مشيئتهُ، وان دافع تدخل الإلهة في اعمال البشر ومن ثم في مسيرة التاريخ هو رغبتها في مساعدة الإنسان في مسيرة حياتهُ واظهار ان الكائن الالهي مهتم بمجرى التاريخ.

كذلك الاساطير احياناً تفسر حوادث التاريخ تفسيراً بطولياً من خلال دورانها حول مؤسسي السلالات الحاكمة وتأثيرهم في توجيه مسار التاريخ من خلال حروبهم وحملاتهم العسكرية واعمالهم الاخرى.

اما الطوفان تتضمن تفسيراً للتاريخ البشري يختص بالحديث عن نهايتهُ من خلال هلاك الجنس البشري من قبل الإلهة، لكن هلاك البشر جميعاً بالطوفان غاية اساسية ونهاية حتمية للتاريخ (نهاية التاريخ)، فان نهاية تلك المسيرة للفرد والبشرية كلها يمثلها الموت الذي لا ينجو منه أحد سوى الإلهة، وما على الإنسان الا ان يستمتع بالحياة خلال مسيرة حياتهُ وهذا واضح في مملكة كلكامش، وهناك اوجه شبه بين الأسطورة وفلسفة التاريخ لكون فلسفة التاريخ ورثت الأسطورة بعد ان تبلور وعي الإنسان للتاريخ، وقبل ذلك الواعي كانت الأسطورة تحيا مع التاريخ في مرحلهُ الاولى دون ان تنتهي مهمتها بانبثاقهُ، لان لكل منهما هدف يسعى إليهِ مغايراً لهدف اخر.